توما باين

THOMAS PAINE

مات منذ مئة سنة رجل لولا فقرهُ ولولا مجاهرتهُ بمخالفة رجال الدين ورجال السياسة لرأيت تماثيلهُ الآن منصوبة في كثير من مدن انكلترا واميركا

وولد منذ مئة سنة رجل لو عاصر الاول واحسنَ حمدتهُ وافتقر مثلهُ لسمي اسمهُ لكنهُ اعتدل وتأنّى ولم يذكر الدين ولا السياسة لا بمدح ولا بذم ورُزق من كبار العلماء من شدَّ ازرهُ . وكانت الحرية الشخصية التي نادى بها الاول واطّهد لاجلها قد رسخت اصولها في النفوس فلم يمت الثاني حتى مدحهُ و بجّلهُ الذين هدم اساس عقائدهم واستبدادهم اكثر مما هدمها الاول واعترف بفضلهِ الذين ناصبوهُ العداوة

الرجل الاول توما باين الكاتب الانكليزي الحر صاحب كتاب حقوق الانسان وكتاب عصر العقل . ولد ببلاد الانكليز سنة ١٧٣٧ من بيت وضيع من طائفة الكويكر . ولما كان لهُ ٣٧ سنة من العمر ذهب الى اميركا وفي نيتهِ اهاجة سكانها الى طلب الاستقلال التام فانشأ لهم رسالة موضوعها البصيرة او الاحتكام الى العقل (Common sense) كان لها تأثير شديد في نفوسهم على ما شهد بهِ وشنطون الشهير. فان زعماء الشعب الاميركي كانوا قد يئسوا من النجاح وكادوا يعدلون عن مطالبهم فلما انتشرت بينهم هذه الرسالة واعتمدوا على ما فيها من الحجج والادلة اشتدَّت عزائمهم ونهضوا نهضةً واحدة . ولما أُعلنت الحرب انتظم في سلك الجندية كاحد الجنود . ولكن الدوائر كانت تدور على الاميركيين في اول الامر فانشأ لهم رسالة ثانية سماها حد الفصل او فصل الخطاب (Crisis) انشأها على نور النار في ليالي الظلام وقال في فاتحتها "These are the times that try men's souls" « اي في الاهوال تعرف الرجال » فذهب قولهُ مثلاً وجعل الجنود يتمثلون بهِ وجعلوهُ شعاراً للحرب فحاربوا وفازوا ولباين اليد الطولى في فوزهم . فذكر الاميركيون لهُ هذا الفضل عليهم حينما فازوا باستقلالهم وجعلوهُ سكرتيراً للجنة التي كانت تدير الامور الخارجية

اما هو فرجع الى انكلترا وقال ان غرضهُ فتيح عيون الشعب ليرى جنون رجال الحكومة وخيلهم فانشأ كتاباً في هذا الموضوع سماهُ حقوق الانسان The Rights of man ظهر الجزء الاول منهُ سنة ١٧٩١ فانتشر انتشاراً لا مثيل لهُ و بيع منهُ مليون وخمس مئة الف

نسخة قبل النبهت لهُ الحكومة . وهو من اكتب القوية الحجَّة الغزيرة العبارة وهذا ممَّا زاد اقبال الناس عليهِ وارتباك الحكومة في امرها تجاههُ حتى قال الوزير بت Pitt ان باين مصيب في ما يقول ولكن ما العمل فاني اذا عضدتهُ او تغاضيت عنهُ فلا مناص من ثورة دموية

فاتهم باين بخيانة وطنهِ وطُلب للمحاكمة لكنهُ خرج من بلاد الانكليز قبل ان القي القبض عليهِ لان بعض الفرنسويين كانوا قد انتخبوهُ عضواً عنهم في مجلس النواب الفرنسوي . وحكم على توما موير الذي نشر الكتاب بالنفي اربع عشرة سنة

واستصعب باين خدمة فرنسا في مجلس نوابها لانهُ لم يكن يعرف اللغة الفرنسوية جيداً . ولما حوكم الملك لويس السادس عشر طلب باين ان يكتفي بنفيهِ الى اميركا فاغاظ منهُ روبسبير وحكم عليهِ بالقتل والقي في السجن سنة ١٧٩٤ لكنهُ نجا من القتل وكان قد الَّف الجزء الاول من كتابهِ عصر العقل The Age of Reason فسلَّم نسخهُ لاحد اصدقائهِ وهو ذاهب الى السجن فنشرهُ . والكتاب ضد الديانة المسيحية وضد التعطيل معاً لكنهُ مؤيد لمذهب الموحدين فاغاظ منهُ المسيحيون في اوربا واميركا وخذلهُ وشطون محرر اميركا واكثر اصدقائهِ . واقام في سجن فرنسا احد عشر شهراً ثم أُخرج منهُ وُردَّ الى مجلس النواب لكنهُ سئم الحكومة الفرنسوية فتركها وذهب الى اميركا في سفينة بعث بها اليه جفرسن رئيس الولايات المتحدة وتوفي في نيويورك في ٨ يونيو سنة ١٨٠٩ فقيراً معوزاً ونقل بعضهم رفاتهُ الى بلاد الانكليز ولكن لا يعلم اين هو الآن

قالت جريدة التيمس من مقالة انشأتها حديثاً عن هذا الرجل انهُ «مضى الى اميركا غريباً لكنهُ فعل فعلاً جليلاً في استقلالها واحسن مساعدة الفرنسويين في ثورتهم . وكانت كتاباتهُ السياسية تخيف بمقدار ما تخيف جنود الجمهورية وكتاباتهُ الدينية استحقت ان يقوم لنقضها اعلم رجال الدين في عصرهِ . ولقد كان لثلاثة او اربعة من كتبهِ الحكم الفصل في الشؤون السياسية كأنها ثلاثة او اربعة من معارك الحروب الكبيرة الفاصلة

«كان جمهور الناس يجهل ما في حقوق الانسان الى ان ظهر كتاب باين في هذا الموضوع . نعم ان الخاصة كانوا قد اطلعوا على فلسفة لوك وروسو لكن كان رجال الدين ورجال القضاء قد اقاموا سوراً حصيناً بينها وبين عقول الجمهور فلما ظهر كتاب باين ثغر هذا السور ثغرة كبيرة تدفق الماء منها فعمر البلاد كلها وعرف الجميع ان كل الناس احرار طبعاً ومتساوون ومستقلون ولا يمكن ان يخرج احد من ملكهِ او يخضع لسلطة غيرهِ الاَّ برضاهُ فلما قرأ الناس هذا الكتاب اندهشوا وقال اهالي لندن انهم لم يقرأوا شيئاً مثلهُ

« وما فعلهُ باين في السياسة فعلهُ في الديانة اي التعاليم الدينية فان اعداء الديانة كانوا يحاربونها خفية بالاستعارات والكنايات وهم يتملقون رجالها لكي لا يتهموا بالكفر ولذلك لم يكن رجال الدين يخشون بأسهم . اما باين فجرَّد قلمهُ وتكلم واثار حرباً شعواء في رائعة النهار ولم يبقِ للصلح مكاناً وساعدهُ على قصدهِ انسجام عبارتهِ وبلاغة انشائهِ وشعور القارىء ان الكاتب يكتب ما يعتقدهُ ويقصد اقناع قارئهِ به مع انهُ كان قليل المعارف غير متضلع من العلوم

وبالجملة كان لباين اليد الطولى في أكبر ثورتين سياسيتين وفي ثورة دينية لا تقلُّ عنهما شأناً ومَن يقرأ كتبهُ الآن لا يجد فيها التفاعل الذي وجدهُ معاصروهُ »

والرجل الثاني دارون الواسع العلم الواسع الخبرة وقد اثار اعظم حرب علمية ودينية وادبية وهو يساعد الفوس ويتفق على المبشرين لا نفاقاً بل اعتقاداً منهُ انهم يعملون اجلَّ عمل في ترقية نوع الانسان . وسيرتهُ واعمالهُ تقتضي مقالاً طويلاً فنرجئها الى الجزء التالي

اصلاح نسل الانسان

كان للمقالة التي نشرناها في الجزء الاخير من المقتطف وموضوعها « نيتشه وابن الانسان » وقع حسن لدى جمهور العلماء والادباء كما قال لنا بعضهم لان مسألة اصلاح النسل من اهم المسائل التي اهملها الانسان وكان الواجب عليهِ ان يقدمها على كل مسألة سواها . ويظهر لنا من مطالعة الصحف الاوربية ان الجزء الاول الذي صدر من مجلة « اصلاح النسل » (المجلة اليوجينية) وقع احسن وقع لما تضمنهُ من المباحث الجليلة المفيدة . فقد كتب صديقنا المستر فرنسيس غلتن محرر هذه المجلة يقول ان مدارها واسع مختلف المواضيع ومباحثها تشمل اولاً علم البيولوجيا من حيث علاقتهُ بالوراثة والانتخاب . وثانياً علم الانثروبولوجيا من حيث ايضاحهُ مسائل طوائف الناس وسنن الزواج . وثالثاً علم السياسة بمعناها القديم المطلق من حيث حقوق الوالدين المدنية . ورابعاً علم الاخلاق من حيث تقوية الملكات الآيلة الى اصلاح الهيئة الاجتماعية . وخامساً المواضيع الدينية التي تقوي وتطهر الاميال اللازمة لاصلاح النسل

فللوراثة شأن كبير لا ينكر ولكن الاحوال التي تحيط بالوالدين تؤثر في الاميال التي تكون كامنة في النسل وقت الولادة وتتنوع بتنوع الاحوال بعد الولادة ولذلك تشير هذه المجلة بكل اصلاح اجتماعي من شأنهِ تقوية الاميال الآيلة الى نفع المجتمع الانساني وكبح الاميال التي تضرُّ بهِ . وتعضد الرأي العام القائل ان العقل السليم يكون في الجسم